

# «في الشعر الجاهلي» كتاب طه حسين الذي أربك الدارسين

## التاريخ والمنطق ينصفان الرجل الذي ذهب بالفكر الحر نحو أقصاه



سوزان بريسو.. منذ أن سمع صوتها لم يعرف قلبه الألم

الإبداع الأدبي ما زالت قصصه ورواياته تنشر مثل "دعاء الكروان" و"المعذبون في الأرض" و"صوت باريس"، حتى أن نجيب محفوظ اعترف قبل وفاته أنه قد استلهم فكرة ثلاثيته من قصة طه حسين "شجرة البؤس". ولا ننسى هنا سيرته "الأيام" التي تعد فتحا غير مسبوق في السيرة الذاتية العربية.



نزار قباني  
أرم نظارتيك ما أنت  
أعنى إنما نحن جوقة  
العميان

طه حسين، وبعد مرور ما يزيد عن نصف قرن على وفاته، لا يزال محط تقدير واحترام فائقين حتى في أحلك الظروف وأكثرها انحطاطا وتهميشا للثقافة والمثقفين، إذ تحتفظ الذاكرة التونسية، مثلا، بزيارته التاريخية إلى تونس فجر استقلالها سنة 1957 وإشراقه على تأسيس دار المعلمين العليا فيها، ومحاضراته التي أبدى فيها كبير إعجابه بذلك "التناغم الرشيق بين الدين والندبا، والذي يندر مثله في العالمين العربي والإسلامي"، وذلك أثناء لقائه بشيخ جاسم الزيتونة. هذه العلاقة التاريخية المميزة بين المفكر الليبرالي المصري وجمهوره محبيه في تونس جعلت أخيرا الهيئة المستقلة للاتصال السمعي والبصري في تونس "الهايكا" تتخذ قرارا بوقف بث برنامج إذاعي لمدة أسبوع بعد سخريه أحد مقدميه من عميد الأدب العربي طه حسين.

وفي بيان أصدرته منذ أيام أكدت "الهايكا" أنها قررت إيقاف برنامج "أحلى صباح" الذي يتم بثه على القناة الإذاعية الخاصة "موزايك أف.ام" لمدة أسبوع من تاريخ بلوغ القرار، وذلك للمخالفة الجسيمة التي تضمنتها تلك الحلقة من البرنامج، والتي تمثلت في "المس من الاحترام الواجب لكرامة الإنسان من خلال السخرية من أصحاب الإعاقة المصرية". كما قرر المجلس عدم إعادة بث الحلقة موضوع القرار وسحبها من الموقع الإلكتروني الرسمي للإذاعة ومن جميع صفحات التواصل الاجتماعي التابعة لها والالتزام بتنفيذ قرار الهيئة وعدم الانتفاخ عليه بأي شكل من الأشكال.

إنه طه حسين الذي قال عنه نزار قباني "أرم نظارتيك ما أنت أعنى إنما نحن جوقة العميان أيها الأزهرى يا سارق النار وبيا كاسرا حدود الثواني".

مصر من فرنسا سنة 1915، أقام فيها حوالي ثلاثة أشهر أثار خلالها معارك وخصوصيات متعددة محورها الكبير بين تدريس الأزهر وتدريس الجامعات الغربية الأمر الذي حدا بالمسؤولين إلى اتخاذ قرار بحرمانه من المنحة المعطاة له لتغطية نفقات دراسته في الخارج، لكن تدخل السلطان حسين كامل حال دون تطبيق هذا القرار، فعاد إلى فرنسا من جديد لمناخة التحصيل العلمي ولكن في العاصمة باريس، فدرس في جامعتها مختلف الاتجاهات العلمية في علم الاجتماع والتاريخ اليوناني والروماني والتاريخ الحديث وأعد خلالها أطروحة الدكتوراه الثانية وعنوانها "الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون"، وكان ذلك عام 1918 إضافة إلى إيجازه دبلوم الدراسات العليا في القانون الروماني والنجاح فيه بدرجة الامتياز، وفي غضون تلك الأعوام كان قد تزوج من سوزان بريسو الفرنسية سويسرية الجنسية التي ساعدته على الإطلاع أكثر فأكثر على اللغة الفرنسية واللاتينية، فتمكن من الثقافة الغربية إلى حد بعيد.

### سارق النار

كان لهذه السيدة عظيم الأثر في حياته، فقامت له بدور القارئ، فقرات عليه الكثير من المراجع، وأمدته بالكتب التي تمت كتابتها بطريقة برايل حتى تساعده على القراءة بنفسه، كما كانت الزوجة والصديق الذي دفعه للتقدم دائما وقد أحبها طه حسين حبا عظيما، ومما قاله فيها أنه "منذ أن سمع صوتها لم يعرف قلبه الألم"، وكان لطفه حسين منها إثنا من الأبناء هما أمينة ومونس.

**أول ما بدأ طه حسين بدكّه في الشعر الجاهلي هو التشكيك في صحة روايته وخلص إلى أن غالبه منقول**

طه حسين كان نموذجا للمثقف الموسوعي والملم بالمفهوم الجاهلي للكلمة، فالمتابع لجميع مؤلفاته يكتشف أنه كتب في كل شيء، نقدا وتاريخا وتحليلا وتوثيقا، ودراسات استشرافية منزهة مهما "مستقبل الثقافة في مصر"، الكتاب الذي سبق عصره. وفي كل ما كتب لم يجد طه حسين عن منهجه العلمي وسلوكه الليبرالي حتى في المرحلة الناصرية التي غلب عليها طابع الأدلجة والتجيش. يكفي أن نتطلع على كتاب "في الشعر الجاهلي" حتى نكتشف أن طه حسين لا يأخذ بالمسلمات، ولا يستقر عند يقين في نظر المجموعة.. إنه مختلف، ويتفوق على نفسه في كل ما كتبه. فعلى صعيد

الجاهلي عبدالحفيظ السطلي، الذي تشرفت شخصيا بالتعلم منه في جامعة دمشق.. هل أنا، ومن حيث لا أعلم، أحد تلاميذ أساتذة طه حسين من أمثال كارل بروكلمان أو ريجيس بلاشير من اللذين قال عنهم طه حسين "وكيف تصورون أساتذا للآداب العربي لا يلزم ولا ينتظر أن يلزم بما انتهى إليه الفرنج من النتائج العلمية حين درسوا تاريخ الشرق وأدابه ولغاته المختلفة، وإنما يُلتَمَس العلم الآن عند هؤلاء الناس؟" ويضيف المفكر الليبرالي الممنع للغرب الأوروبي في كل معارفه "ولا بد من التماس المعرفة عندهم حتى يتاح لنا نحن أن ننهض على أقدامنا، ونطرح باجئنا، ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علوونا وأدبنا وتاريخنا".

وكان لا بد لهذا الرأي من حملات ورود لإدعاء من طرف الأوساط النقدية في الكتابة العربية من أمثال حمو عبدالكريم الذي وإن أقر بفضل المستشرقين في الإضاءة على الأدب العربي قديمه وحديثه، فإنه يعتبر أن طه حسين لم يكن في الحقيقة سوى ثمرة من ثمرات الاستشراق، ومُشرّا بالمبادئ والأصول التي دعا إليها المستشرقون في مجال دراسة الأدب، وعلى صعيد الرؤية العامة للأدب العربي الكلاسيكي في عصوره المختلفة.

ويستشهد في ذلك بما جاء في كتاب إدوارد سعيد الشهير عن الاستشراق بقوله "وكانت العلاقة بين المستشرق والشرق بصورة أساسية تأويلية، فإذا وقف المستشرق في الباحث أمام حضارة أو منجز ثقافية نائية لا تكاد تفهم، قاص الإيهام عن طريق الترجمة، والتصور المتعاطف.. بيد أن المستشرق بقي خارج الشرق الذي يبقى نائبا عن الغرب".

سيرة طه حسين الذاتية كانت بمثابة دراما حقيقية، وملحمة بطل قهر الظلام والجهل والفقر. وقدم المصري، والشرقي عموما، على أنه إنسان جدير بالعيش الكريم، يتوق إلى الأنوار وهو يفكر ويدهش ويمتدح، متحديا واقعه المرير، ومتجاوزا لثقافة الترهات والقبول بالمقول دونما تفكير أو تمحيص كما هو الشأن في قضية الشعر الجاهلي التي زعزت قناعات أولئك الذين يقبلون بالكلام على عوامته دون أن يعيدوا فيه النظر والتحميص.. التحميص، الم يقل ابن خلدون الذي قدم فيه طه حسين أحد أهم أطروحته "التاريخ في باطنه لا يزيد عن الإخبار، وفي باطنه نظر وتمحيص؟" قبل أن ينجز كتابه الشهير عن الشعر الجاهلي الذي كان بمثابة القنبلة المدوية في الأوساط الأدبية والنقدية، عاد طه حسين إلى

شيا في الشعر الجاهلي. فها هو القرآن الذي أتى بلغة واحدة وهي لغة قريش ولهجتها، ما إن تناولته القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تباينا. يطرح طه حسين السؤال "إن كان كيف استقامت أوزان الشعر الجاهلي وبحوره وقوافيه ولغته لقبائل العرب كلها على الرغم من تباين لغاتها ولهجاتها؟"

ويعطي طه حسين الدليل ويقدم الحجة بقوله "مثلا امرؤ القيس قحطاني، يعني حسب الرواة، وشعره قرشي اللغة، لا فرق بينه وبين القرآن في لفظه وإعراجه وما يتصل بذلك من قواعد اللغة. فكيف نظم الشاعر اليمني شعره في لغة أهل الحجاز؟ بل في لغة قريش؟".

بيرز هذا واضحا في كتابات الناقد الموسوعي المصري شوقي صيف (1910 - 2005) تلميذ طه حسين ووريث كرسيه في مجمع اللغة العربية، والذي كان بدوره أستاذ أحد جهابذة مدرسي الأدب

أغرب ما أثار طه حسين في كتابه هو كيف غفل شعراء هذا العصر المسمى بـ"الجاهلي" على تصوير حياتهم الروحية فبدت لنا وكأنها جافة وخالية من المشاعر الدينية، فكانما نحن إزاء ثلة من الشعراء اللادينيين أو الملحدتين الذين لا تعنيهم عقيدة أو إيمان، في حين أننا نتلمس بيئة معنية بأسئلة الوجود والعدم، كما هو الشأن في قصائد أمية بن أبي السلت أو خطب قص بن ساعدة ونثرياته.

عجز هذا الشعر عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين، فهو يُظهر حياة غامضة جافة بريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على الحياة العامة. فيطرح السؤال: كيف لقبائل عربية ضحّت وحاربت من أجل دينها لا تظهر هذه الحياة الدينية في شعرها؟

ويتساءل صاحب الأطروحة الأكثر إثارة في تاريخ الأدب العربي: إذا كان هذا الشعر ينتمي إلى قبائل متفرقة (القحطانيون في اليمن، العدنانيون في الحجاز)، والنقوش والنصوص أثبتت أن هناك فرقا جوهريا بين لغة القحطانيين والحجازيين، إذن من المفروض أن يظهر اختلاف في لغة الشعر هذه القبائل لكاننا لنرى

الجميع تسابق على شتمه والإساءة إليه قبل قرابة قرن، ليفرج مؤخرا عن الوثيقة التي برأته من تهمة الإساءة إلى الدين الإسلامي ونشره كتابا يتضمن "خرافات وتكديبا للكتب السماوية". إنه طه حسين الأزهرى الدرعي والسوريوني "سارق النار" والمبصر الوحيد في "جوقة العميان". أما كتابه فهو "في الشعر الجاهلي"، الكتاب الذي أربك الدارسين وقلب الموازين.

أدرك طه حسين مبكرا أن لا شيء يبقده وينقذ بلده من الواقع المتردي غير العلم والمعرفة الذين تميز بهما الغرب، فأمسك بالأمر كغنيمة حرب، وكلفه ذلك ما كلفه من غربة نفسية وانزواء اجتماعي وسط واقع يعمل كل شيء فيه ضده.

كان على الشاب الذي أبدى تفوقا مذهبا منذ طفولته في الكتابات وما تلاها من المراحل الأزهرية (نسبة إلى دار الأزهري) فالدرعية (نسبة إلى دار المعلمين) ثم السوربونونية (نسبة إلى جامعة السوربون) أن يشكك في كل ما تلقاه عن طريق ثقافة النقل التي جانبته العقل.

وكان من الطبيعي أن يتسلح بفلسفة رائد الحدائق الفرنسي رينيه ديكارت (1596 - 1650) في مقولته الشهيرة "أنا أشك، إذن أنا موجود". أعمل طه حسين معوله في كل ما تعلمه ولقنوه إياه فلم يستسلم لكل ما هو جار لدى الآخرين مجرى الحقيقة المطلقة، فكان مثل المعري الذي كتب عنه إحدى أهم أطروحته، وهو التكيف مثلا، يشكك في كل ما قاله الأقدمون واعتبروه قيمة ثابتة.

أول ما بدأ طه حسين بدكّه في الشعر الجاهلي هو التشكيك في صحة روايته وحقيقة تدوينه، وخلص إلى أن غالبه منقول، ومُسَوَّب إلى من جاء بعده في صدر الإسلام وعصر التدوين، أي في الفترة التي انتشرت فيها الكتابة وصار فيها للشعر رواة يبيعون ويشترطون في الأسواق، وينسجون على منوال الأسلاف، تماما كما يفعل الصينيون الآن في التجارة العالمية.

"في الشعر الجاهلي" كتاب أراد صاحبه أن يتطرق إلى لغة هذا الشعر، والزمن الذي كتب فيه، ولماذا كتب، وهل أن شعراء ما قبل الإسلام حقيقة أم خيال من صنع بياعي الكلام والمتاجرير به لشتى الغايات.

ما حقيقة شعراء مثل عنتره وامرئ القيس وطرفة بن العبد... وغيرهم؟ هل ينتمي هذا القول إليهم أم هو مجرد نظم وضعه صاحبه على نفس الشاكلة بطريقة لا تخلو من مهارة وحرفية تمحو الأثر وتتوه الدارسين والمؤثريين كما فعل حماد الراوية في الكوفة، والملقب بـ"حماد الكذاب" آنذاك؟

أغرب ما أثار طه حسين في كتابه هو كيف غفل شعراء هذا العصر المسمى بـ"الجاهلي" على تصوير حياتهم الروحية فبدت لنا وكأنها جافة وخالية من المشاعر الدينية، فكانما نحن إزاء ثلة من الشعراء اللادينيين أو الملحدتين الذين لا تعنيهم عقيدة أو إيمان، في حين أننا نتلمس بيئة معنية بأسئلة الوجود والعدم، كما هو الشأن في قصائد أمية بن أبي السلت أو خطب قص بن ساعدة ونثرياته.

عجز هذا الشعر عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين، فهو يُظهر حياة غامضة جافة بريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على الحياة العامة. فيطرح السؤال: كيف لقبائل عربية ضحّت وحاربت من أجل دينها لا تظهر هذه الحياة الدينية في شعرها؟

ويتساءل صاحب الأطروحة الأكثر إثارة في تاريخ الأدب العربي: إذا كان هذا الشعر ينتمي إلى قبائل متفرقة (القحطانيون في اليمن، العدنانيون في الحجاز)، والنقوش والنصوص أثبتت أن هناك فرقا جوهريا بين لغة القحطانيين والحجازيين، إذن من المفروض أن يظهر اختلاف في لغة الشعر هذه القبائل لكاننا لنرى

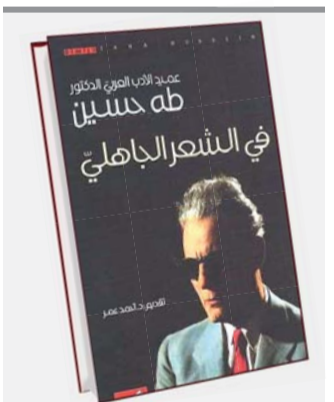
**حكيم مرزوقي**  
كاتب تونسي

أُفرج أخيرا عن الوثيقة التي تضمنت التحقيق مع طه حسين بإشراف محمد نور بك رئيس نيابة مصر في 19 أكتوبر 1927.

وقال رئيس النيابة في عريضة الحيثيات آنذاك إن "مؤلف الكتاب لم يكن غرضه الطعن والتعدي على الدين، بل إن العبارات الماسية بالدين التي أوردها في بعض المواضع من كتابه إنما قد أوردها في سبيل البحث العلمي مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها". وكان رئيس النيابة قد بدأ التحقيقات بعد بلاغ صادر من مؤسسة الأزهر قدم في 30 مايو 1926 يتهم فيها الدكتور طه حسين بأنه ألف كتابا يعرض على القرآن، ويشكك في الروايات والأحاديث الصادرة بشأنه، وقد جاء الكتاب تحت عنوان "في الشعر الجاهلي".

### غنيمة حرب

طه حسين بدوره استنشق الحدث وتوجس من عواقبه في مقدمة الكتاب التي يقول فيها "وأكد أثق بان فريقا منهم سليلقونه ساخطين عليه". وفعلا هذا ما لقيه الكتاب المثير للجدل "في الشعر الجاهلي" عندما نُشر في عام 1926، وكانه كان يتوقع أن تتورثاثر الأزهر على الكتاب، قاضى عدد من علماء الأزهر طه حسين إلا أن المحكمة برأته لعدم ثبوت أن رأيه قصد به الإساءة للتمعة للدين أو للقرآن. مُنع الكتاب من البيع وقدم طه حسين للمحاكمة بتهمة إهانة الإسلام، لكن القاضي محمد نور حكم ببرأته وقال "إنه (الكتاب) رأي أكاديمي لاستناد في الجامعة ولا يُمكن اتخاذ أي إجراء قانوني ضده، وذلك لعدم توافر القصد الجنائي".



كتاب أراد صاحبه أن يتطرق إلى لغة الشعر الجاهلي وهل أن شعراء ما قبل الإسلام حقيقة أم خيال من صنع بياعي الكلام

تري، ما عساه أن يكون هذا الكتاب الذي أقام الدنيا ولم يقدها في أواخر عشرينيات القرن الماضي، أي في مرحلة نظن فيها أن الأمية كانت تضرب أطنابها، وأن القراء والمهتمين يُعدون على أصابع اليد الواحدة؟ ثم أن حكم القضاء كان متفهما ومتسامحا أكثر مما هو عليه هذه الأيام، بدليل أنه قضى بعدم سماع الدعوى المقامة ضده، وبراً المفكر المستنير من التهم الموجهة ضده.

تبدأ الحكاية بسيرة صبي مصري كيف (1989 - 1973) عانى الفاقة والحرمان وسط بيئة يكتسحها الجهل والتخلف، وبين عائلة كثيفة العدد وفقيرة الحال في صعيد مصر. كل العوائق التي كانت ضده من جهل وخصاصة وتخلّف وحرمان وشعونة وتسببت في مساته التي كان أبرزها فقدان البصر، كان طه حسين لها بالمرصاد حين وعى وتفتح وعيه على العلوم الحديثة والثقافات الغربية التي تمسك بها مظلمة يتمسك غريق وساع للنجاة بنفسه وبيده.. طه حسين فقد البصر لكنه لم يفقد البصيرة.